

تفسير ابن كثير

يقول تعالى مخبرا عن عظمته وكبريائه وجلاله وأسمائه الحسنی وصفاته العلاء وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها كما قال سيد البشر وخاتم الرسل [لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك] فقال تعالى : { ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله } أي ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاما وجعل البحر مدادا وأمدته سبعة أبحر معه فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام ونفذ ماء البحر ولو جاء أمثالها مددا وإنما ذكرت السبعة على وجه المبالغة ولم يرد الحصر ولا أن ثم سبعة أبحر موجودة محيطة بالعالم كما يقوله من تلقاه من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب بل كما قال تعالى في الآية الأخرى { قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا } فليس المراد بقوله { بمثله } آخر فقط بل بمثله ثم بمثله ثم بمثله ثم هلم جرا لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته .

قال الحسن البصري : لو جعل شجر الأرض أقلاما وجعل البحر مدادا وقال الله إن من أمري كذا ومن أمري كذا لنفذ ماء البحر وتكسرت الأقلام وقال قتادة : قال المشركون : إنما هذا كلام يوشك أن ينفذ فقال الله تعالى : { ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام } أي لو كان شجر الأرض أقلاما ومع البحر سبعة أبحر ما كان لتنفذ عجائب ربي وحكمته وخلقه وعلمه وقال الربيع بن أنس : إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها وقد أنزل الله ذلك { ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام } الآية يقول : لو كان البحر مدادا لكلمات الله والأشجار كلها أقلاما لا تكسرت الأقلام وفني ماء البحر وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء لأن أحدا لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يثني كما ينبغي حتى يكون هو الذي يثني على نفسه إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول .

وقد روي أن هذه الآية نزلت جوابا لليهود قال ابن إسحاق : حدثني محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس [أن أحبار يهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة : يا محمد أرايت قولك { وما أوتيتم من العلم إلا قليلا } إيانا تريد أم قومك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلا كما قالوا : ألسن تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان لكل شيء ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنها في علم الله قليل وعندكم من ذلك ما يكفيكم] وأنزل الله فيما سأله عنه من ذلك { ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام } الآية وهكذا روي عن عكرمة وعطاء بن بشار وهذا يقتضي أن هذه الآية مدنية لا مكية

والمشهور أنها مكية وإِأَعْلَم .

وقوله { إِنْ إِأَعْلَمُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } أي عزيز قد عز كل شيء وقهره وغلبه فلا مانع لما أراد ولا مخالف ولا معقب لحكمه حكيم في خلقه وأمره وأقواله وأفعاله وشرعه وجميع شؤونه وقوله تعالى : { مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كُنْفُسًا وَاحِدَةً } أي ما خلق جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة خلق نفس واحدة الجميع هين عليه { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } { وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ } أي لا يأمر بالشئ إلا مرة واحدة فيكون ذلك الشئ لا يحتاج إلى تكرره وتوكيده { فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ } وقوله { إِنْ إِأَعْلَمُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } أي كما هو سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة ولهذا قال تعالى : { مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كُنْفُسًا وَاحِدَةً } الآية